﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هـذهِ الآيـةُ من تمام ما قبلَها، ونتيجةٌ له؛ فهي تُحَقِّقُه

لمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى فيما سبقَ الجزاءَ المُعدَّ للمتَّقين بإعطائِهم ما يشاءون في الجنَّةِ وتكفير سيئاتهم بقولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ الآية؛ ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما يوصلُهُم إلى ذلك؛ لأنَّه يكفيهم في الدُّنيا كلَّ ما أهمَّهم، ولا يضرُّهم تخويفُ المشركين لهم من غضبِ الأوثانِ عليهم؛ لأن الأمور كلَّها بيده سبحانه؛ فمَنْ يُضلُّه فلن تجدَ له وليًّا مرشدًا.

ومنها: لمّا ذكَر اللّه ﷻ ما أعده للكاذبين والمُكذِّبين من طول المقام في جهنم وإكرام الصّادق والمُصدَّق بما أعدَّه لهم من كُنوز عطائِه التي لهم فيها ما يشاؤون؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ تهديدَ الكذّابين والمُكذِّبين لأهل الإحسان لا يضرُّهم شيئًا؛ لأنَّ وعدَ اللّهِ لأهل الصِّدقِ فيه الكفايةُ؛ فقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِكَافٍ﴾: الكافُ والفاءُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُسْتزادَ فيه؛ يُقال: كفاكَ الشَّيءُ، يَكْفيكَ، وقد كفَى كِفايةً؛ إذا قامَ بالأمرِ، ويُقال: كافيكَ فلانٌ من رَجُلٍ؛ كقولك: حسْبُك من رَجُلٍ، والكِفايةُ ما فيه سَدُّ الخُلَّةِ وبُلوغُ المُرادِ في الأمرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: 25]. والمقصودُ بقوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 436، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 245.

﴿بِكَافٍ﴾ في سياق جملته: أنَّ الله يكفي عبده بما لا يستطيعُ أنْ يكفيَ به نفسَه - في كلِّ حالٍ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ هو الكافي الهادي

ذكَرَ ﷻ في هذه الآية أنَّه وحدَهُ هو الذي يدفعُ عن عبادِه جميعًا الآفاتِ والمصائبَ والويلاتِ ويعطيهم ما يشاءون، وفي هذا تثبيتٌ لهم، وتسليةٌ لنبيِّه محمّدٍ ﷺ على ما قالَتْهُ قريشٌ له؛ حيثُ خوَّفَتْه أنْ تُخْبِلَه آلهتُهم، وأنْ تُصيبَه بمكروهٍ، ثمّ بيَّنتِ الآيةُ أنَّ من يضلُّه اللهُ عن طريقِ الحقِّ فلا أحد يهديه؛ لأنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيده وحده، وأنَّ ما أرادَ من ذلك لا رادَّ له[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

في الوعدِ والوعيدِ كفايةٌ لإصلاحِ أحوالِ العبادِ

فُصِلت جملة ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها نتيجةٌ مُستفادةٌ ممّا قبلَها من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إلى آخرِ قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ حيث اشتملَ ما سبقَ على الوعيدِ والوعدِ، وفيهما كفايةٌ للعبادِ في صلاحِ أحوالِهم؛ فاللهُ كافٍ عبدَه في مُجازاةِ الصّادقين والكذّابين؛ لأنّه يعلمُ الآفاقَ البعيدة في حياة النّاس لفضيلةِ الصِّدقِ، والآفاقَ البعيدةَ في حياةِ النّاسِ لرذيلةِ الكذبِ؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ[3].

بلاغةُ الاستفهام: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾:

الاستفهامُ أبلغُ في التّثْبيتِ والتّسْليةِ

صُدِّرت الآيةُ بالاستفهام بالهمزة في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، وذلك للتّقريرِ بكِفايةِ اللهِ من شاءَ من عبادِه، ولتسليةِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (كفا)، والراغب، المفردات: (كفى).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 532، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 245.

النّبيِّ ﷺ وتثبيته، وذهب أبو السُّعود إلى أنَّ غرضَه الإنكارُ والنّفيُ، ووجهُ ذلك جعلُه مُسلطًا على عدمِ الكفاية في ظنِّهم؛ فالاستفهامُ إنكارٌ عليهم ظنَّهم أنَّه لا حامي للرَّسول ﷺ من ضُرِّ الأصنام؛ فأفاد إثباتَ كفايةِ اللهِ لرسولِه، والمآلُ واحدٌ في إثباتِ الكفايةِ[1].

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾ دون (آلله)

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بهذا الأسلوبِ الاستفهاميِّ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ دون أن يُقال: آللهُ كافٍ عبدَه؟ وذلك للدّلالةِ على قوّة الثّقة في الإثبات، وأنّه لا يجدُ مُنكرٌ سبيلًا إلى الإنكار، وأنَّ الكفايةَ من التّحقُّقِ والظُّهورِ بحيثُ لا يَقْدِرُ أحدٌ على أنْ يتفوَّهَ بعدمِها، أو يتلعثَمَ في الجواب بوجودِها[2].

الله تعالى كافٍ عبدَه وهو حسبُهُ

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عبَّر القرآنُ باسْم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾؛ تعليلًا للمعنى الذي يُقرِّرُه الاستفهامُ؛ فالإلهُ الحقُّ من شأنِه أنْ يكفي عبادَه؛ فهو "الجامعُ لصفاتِ العَظَمَةِ كلِّها، المنعوتُ بنُعوت الكمالِ من الجلالِ والجمالِ"[3]. ويتَّسعُ معنى الكفايةِ باتِّساعِ مدلولِ اسمِ الجلالةِ؛ لذلك تهيَّأتْ هذه الجملةُ لأنْ تكونَ الجملةَ الأُمَّ في آيتِها وللآيةِ التي بعدَها.

لأنَّه الجامعُ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِكَافٍ﴾:

دخلتِ الباءُ على خبرِ (ليس) في قولِهِ تعالى: ﴿بِكَافٍ﴾ للدّلالةِ على أنَّ الكِفايةَ المذكورةَ من شأنِه سبحانه، وهذا وجه كونِها تُفيدُ توكيدَ مضمونِ الجملةِ، ولأنَّها تدلُّ على توثيقِ العَلاقَةِ الشَّديدةِ بين المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ، ولأنّه لَمّا كان ما قبلَ جملة ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ

من كفايتِه تعالى عبدَه سُرْعةُ حُصولِها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 255.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 601، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 436، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 245.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 448.

عَبۡدَهُۥۖ﴾ مُنْتِجًا لها بقوّةٍ؛ بُنِيَتْ على الإبلاغِ في تقريرِ مضمونِها؛ وذلك بدخولِ الباءِ التي لا يُفارِقُها معنَى الإلصاقِ والاخْتِلاطِ؛ فتدلُّ هنا على أنَّ الكفايةَ خاصّةٌ به سبحانه؛ وذهب البقاعيُّ إلى أنّ التّوكيدَ الحاصلَ بدخولها يواجِه جزمَ أهلِ الكفرِ والكذبِ والتّكذيب بأنّهم غالبون[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (كاف) دونَ غيرِه:

اللهُ يكفي كلَّ من لجأ إليه من عبادِه

عبَّر القرآنُ بـ (كاف) في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ دون غيره؛ لِما يحمله هذا اللَّفظُ من العموم؛ لأنَّه يتَّسِعُ لكلِّ ما يكونُ من اللهِ تُجاه عبادِه؛ إذِ الكفايةُ ما فيه سَدُّ الخُلَّةِ وبُلوغُ المُرادِ في الأمرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]. وهذا العمومُ في المعنى والذي زاد اتّساعًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الأبَرُّ بشأنِ الإله الحقِّ من جهةٍ، وبأحوالِ العبادِ من أهل الإيمان التي تستغرق في العموم من جهةٍ أخرى. ولأنَّ هذا المعنى (الكفاية) هو الأبلغُ والأعلى في التّثْبيتِ والتَّسليةِ للرَّسول ﷺ في صراعِهِ مع قومه؛ فمثلُ هذا الميدانِ الكفايةُ فيه عينُ التَّثبيتِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميَّةِ (كافٍ) دونَ الفعليّةِ (يكفى):

كفايةُ اللهِ مُلازِمةٌ لعبادِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّة (كافٍ) دون الفعلية (يكفى)؛ لأنَّها تفيد الثّبوتَ والاستمرارَ، وهذا هو المناسبُ لشأنِ العبادِ؛ فهم في افتقارٍ دائمٍ إلى كفايةِ اللهِ، ولمّا كانَتْ هذه الكفايةُ مُتعلَّقًا لهم، وكانوا يتعلَّقون بها على جهة الثُّبوت والدَّوام؛ عبّر بالاسميّة، ولم يُعبّر بالفعليّة التي تُفيد التّجدّد والحدوثَ، وفي هذا تسليةٌ للرّسول ﷺ وطمأنةٌ لأصحابه الذين اتّبعوه من أن ينالهم أذًى من أعدائهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448.

سِرُّ التَّنكيرِ في قوله: ﴿بِكَافٍ﴾:

كفايةُ اللهِ عبدَه لا تُساويها كفايةُ غيرِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿بِكَافٍ﴾ مُنكّرًا، ولم يَقُلْ: (بالكافي) مُعرّفًا، وذلك لإبرازِ ما تدلُّ عليه سعتُها ودلالتُها على الألوهيّة الحقّة التي لها القدرةُ التّامّةُ، والعِلْمُ الشّاملُ المُحيطُ؛ وهو الفخامةُ والعظمةُ والجلالُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالعبوديَّةِ في قولِهِ: ﴿عَبْدَهُۥ﴾:

كفايةُ اللهِ تعالى لمَنْ قامَ في ساحةِ عبادتِه وعبوديَّتِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالعبوديّةِ في قوله: ﴿عَبْدَهُۥ﴾؛ لأنَّ مادَّة هذه اللّفظة تدورُ على أصلَيْن؛ أحدُهما اللّينُ والذُّلُّ، فيُقال: عبَد يَعْبُد عِبادة، وهذا لا يُقال إلّا لِمَن يعبُد الله تعالى، فدلَّ هذا على أنَّ كفايتَه ﷻ إنّما تكونُ للواحدِ من عبادِ الله؛ الخالِصِ له، الذي لم يُشْرِك به أصلًا؛ فاللهُ يكفيه مِمَّن كذَّبه، وقصَد مساءتَه، فينصره عليه؛ حتّى يُظْهِرَ دينَه تعالى، ويُعليَ أمره، ويُغنيَ عبدَه عن أنْ يحتاج إلى غيره، أو يجنح إلى سواه؛ باعتقاد أنّ في يدِه شيئًا يستقلُّ به، وهذا لا يُنافي السَّعْيَ في الأسباب مع اعتقادِ أنّها بيد اللهِ.

سِرُّ التَّعبير عن النَّبيِّ ﷺ بالعبوديّة:

جاء التَّعبيرُ عن النَّبيِّ ﷺ بالاسم الظّاهرِ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ دون ضمير الخطاب؛ لأنَّ المقصود توجيهُ الكلامِ إلى المشركينَ[1].

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَيْ: ﴿عَبْدَهُۥ﴾:

مَن أرادَ كفايةَ اللهِ فعليه أنْ يدخلَ من بابِ رسولِ الله ﷺ

تعدَّدت القراءاتُ في قوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ﴾؛ فقرأ حمزةُ والكسائيّ وأبو جعفر وخلَفٌ (عباده) بألفٍ على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألفٍ[2]. ووجهُ مَن قرأ (عباده) أنَّها جمعُ (عبد)؛ فيدخل فيهم كلُّ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عبد)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 448 - 449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13.

(2) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 481.

من عبدَ اللّهَ من الأنبياء والمؤمنين، ووجهٌ من قرأ بالإفراد ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ على أنَّ المُراد به محمّد ﷺ[1].

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المُراد؛ لأنّه لَمّا كانَتْ كفايةُ اللّهِ إنّما تكونُ لمَن لم يشتملُ قلبُه إلّا على توحيدِه؛ فكانَ عابدًا لله مُخلِصًا له الدّينَ، وكان لا يكملُ في هذا المقام إلّا نبيُّنا محمّدٌ ﷺ؛ لذلك أفرَدَه تعالى بالذِّكرِ في قراءةِ: ﴿بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾، ويُؤنس بهذا قولُه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾. فكان المُحتَذَى به؛ لأنَّه رأسُ أهلِ ذلك المقامِ العَليِّ؛ فلهذا توجَّه إليه الأمرُ بذلك في مطلعِ السّورة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: 2].

الله تعالى هو الكافي لعباده جميعًا

وأمّا قراءةُ الجمع فتصدُق على أتْباعِه من أُمَّتِه؛ فرَقًّا بين كفاية اللّه عبدَه مُحمَّدًا ﷺ وكفايةِ اللّه غيرَه من عباد اللّه. وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قراءةَ الجمعِ (عباده) تصدقُ على الرَّسولِ ﷺ وعلى أُمّته؛ فيكون في ذلك تقريرٌ لكفايةِ اللّهِ إيّاه من جهةِ التَّكرارِ لا من جهةِ الخصوصِ والاختصاصِ، قال ابنُ عاشور في توجيه قراءةِ الجمع: "أي النّبيَّ ﷺ والمؤمنين؛ فإنّهم لَمّا خوَّفوا النّبيَّ ﷺ فقد أرادوا تخويفَه وتخويفَ أتْباعِه، وأنّ اللّه كفاهم شرَّهُم"[2].

دلالةُ الإضافةِ في (﴿عَبۡدَهُۥ﴾ - عباده) على القراءتين:

مَن أضافَ قلبَه وكلَّه لله كفاه اللهُ

أضاف القرآنُ (عبْد) و(عباد) - على القراءتيْنِ المُتواترتيْنِ - إلى ضميرِ اسْمِ الجلالةِ في الآية الكريمة، وذلك للتّشريفِ والاختصاصِ؛ ومعنَى الاختصاصِ فيها يعني متانةَ العبوديَّةِ وإخلاص العبادةِ للّه، فهي تمكينٌ لمدلولِ المُضافِ ودلالتِه؛ فليس في قلب العبدِ شائبةُ شِرْكٍ، ولا شيءٌ من شِرْكٍ؛ وإنّما فيه كمالُ المعرفة باللّه كمالَ جمالٍ وجلالٍ.

(1) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 481، والشيرازي، الموضّح: 3/ 1113.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغيبةِ في ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾:

اللهُ تعالى حافظٌ رسولَه ﷺ وكافيه

في التَّعبير عن رسولِ اللّهِ ﷺ بضميرِ الغيبة دون ذِكْرِه تنويهٌ بشأنِه وإعلاءٌ لذِكْرِه، وأنَّه صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليه هو وحده المَعنيُّ بهذا الحديثِ، وهو الجديرُ بهذه الإضافةِ، والتّأكيدُ على أنّه غيرُ مُسْلِمِه إلى أعدائِه"[1].

سِرُّ حذفِ المفعولِ الثّاني لقولِهِ: (كاف):

إفادةُ العمومِ وظهورُ ما يدلُّ عليه

الفعلُ (كفى) يتعدَّى بنفسه إلى مفعولَيْن كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]؛ أمّا هنا مع قوله: ﴿بِكَافٍ﴾؛ فلم يذكرْ إلّا المفعول الأوّل، وهو لفظُ: (عبد)، وأمّا المفعولُ الثّاني فمحذوفٌ لإفادة العموم، فيكون وراء ذلك إبلاغٌ في تقريرِ الكفايةِ على تسلُّطِها على المفعولِ الثّاني المخصوصِ الذي هو الإيذاءُ. وذهب ابنُ عاشور إلى أنّ سِرَّ الحذفِ ظهورُ أنَّ المقصودَ: (كافيك أذاهُم)، فأمّا الأصنامُ فلا تستطيعُ أذًى؛ حتّى يُكْفاهُ الرَّسولُ ﷺ[2].

نكتةُ تقديمِ جملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾:

مَن أراد أن يعرف قدرَ نبيِّنا فلينظر كيف تحدَّثَ القرآنُ عنه

قدَّمَ القرآنُ جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ على جملة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ - لتعجيلِ مساءة المشركين بذلك، ويستتبع ذلك تعجيلُ مسرّة الرّسول ﷺ بأنّ اللّه ضامِنٌ له الوقايةَ؛ كقوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: 137]. فلم يذكر تعالى لنبيِّه تخويفَ خصوم الدَّعوة إلّا بعد أنْ قدَّم بين يديه كفايته له؛ ليقع هذا الإخبارُ بالتّخويف من نفسه موقعًا هيِّنًا، فكانتِ الجملة الأولى تمهيدًا قويًّا للثّانية، وهذا شبيهٌ بتقديم العفو على موضع المؤاخذة في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التّوبة: 43][3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 8/ 1154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12 - 13، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 437.

بلاغةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾

كيف يُخوِّفونَ عبدًا اللهَ كافيهِ؟!

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ الظّاهرُ أنّها واوُ الحالِ؛ ووقوعُ ما بعدَها حالًا من جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ يفيدُ التَّعجُّبَ من حالِهم، والتّهكُّمَ بهم من أجله، والمعنى: أنَّ عُبّادَ الأصنامِ يعلمون أنَّ الله يكفي من أراد، وأنَّ الأصنام لا كفايةَ عندَها بوجهٍ، والحالُ أنّهم يُخوِّفونك[1]. وفي جعلِه حالًا مِمّا قبلَه ترهيبٌ شديدٌ؛ لأنَّ الاستفهامَ في الظّاهرِ يحتاجُ إلى جوابٍ، وجوابُه أظهرُ ما سيكونُ في معاملة هؤلاءِ الذين يُخوِّفون أكملَ الخَلْقِ وأعبدَهُم للكافي اللهِ سبحانه. وجعلُه حالًا يلتئم مع ما قبلَه على قراءةِ الإفراد ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾، وأمّا على قراءة الجمع (عباده)؛ فتفيدُ الحالُ أنَّ تخويفَ أحدٍ من أتباعِه ﷺ كإرادة تخويفِه ﷺ؛ في أنَّ اللهَ كافيهم مِثْلَ ما يكفيه.

النَّبيُّ ﷺ في حراسةِ اللهِ ورعايتِهِ

ويجوز أن يكونَ قولُه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ معطوفًا على مضمونِ قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾؛ والمعنى: اللهُ هو الذي يرعاك ويحفظك، والمشركون يُخوِّفونك بآلهتِهم مع أنّهم لا يستطيعون أن يُلحقوا بكَ الأذى لأنّك في حراسةِ اللهِ ورعايتِهِ[2].

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

التّعبيرُ بالفعلِ عن إرادةِ الفِعلْ

ذَكَرَ بعضُ المُفسِّرين سببَ نزولِ الآيةِ أنَّ قريشًا قالوا له ﷺ: إنّا نخافُ أنْ تُخْبِلَكَ آلهتُنا، وإنّا نخشَى عليك مَعَرَّتَها؛ لعَيْبِكَ إيّاها[3]؛ لكِنَّ ذلك لم يكُن أبدًا؛ فمعنى الفعل (يُخوِّف) لم يكُن، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، فكان القرآنُ قد عبَّر بالفعل عن إرادة الفعل؛ أيْ: (ويريدون أن يُخوِّفوك بالذين من دونه)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 1155.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 4/ 532، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 449، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12 - 13.

ولهم صوَّرَ القرآنُ ذلك بالتّعبير بالتّخويف؛ مجازًا مرسلًا عَلاقَتُه المُسبَّبيَّةُ؛ فإنَّ الإرادةَ سببٌ في الخوفِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل: 98]؛ أيْ: أردتَ قراءتَه؛ بقرينة قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ [النحل: 98].

سِرُّ التَّعبير بالخوفِ في قولِهِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالخوفِ في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ دون (يرهبونك)؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالخوف تدور مادّته حول التّحذير من مكروهٍ يقع في المستقبلِ، وهذا ما قصَد إليه أهلُ الشِّرْكِ من تحذيرِهم نبيَّنا محمّدًا ﷺ من تَعْييبِه آلهتَهُم. وممّا يُؤكِّد ذلك إطلاقُ الخوفِ على الذُّعْرِ والفزَعِ[1]، ويُساعدُ على ذلك ما ذُكِر في بيانِ سببِ نزول هذه الآيةِ سابقًا؛ أمّا التَّرهيب بأن يقول: (ويُرهبّونك) لا يؤدّي المعنى المُراد؛ لأنَّ المقصود به الخوفُ الذي يصحبه اضطرابٌ شديدٌ، وهذا لا يتأتَّى مع الرَّسول ﷺ.

أهلُ الباطلِ يلجأون إلى التّخويفِ لِما هم فيه من الخوفِ

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فَعَّلَ):

بُنِي الفِعْلُ على صيغةِ (فَعَّلَ)؛ للدّلالةِ على بذلِهم الجهدَ في التّخويف من سبِّ آلهتهم، وشدّة رغبتِهم في تخويفه ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

في التَّعبير بالمضارعةِ إشارةٌ إلى تَكرارِ مِثْلِ هذا التّخويفِ من المشركين للرّسول ﷺ ولأتباعِهِ في زمنِهِ وفي الأزمنةِ التي بعده يتجدَّد أمرُ التَّخويف من المشركين للمسلمين.

شدّةُ بُغضِهم للرَّسول ﷺ بمثابةِ تجدُّد التَّخويفِ

وممّا يُذكرُ في سِرِّ التَّعبيرِ أيضًا إشارتُهُ إلى ما يعتملُ في قلوبِهم ونفوسِهم من الحقد والحسد ممّا ترتَّب عليه إرادةُ تخويفِه ﷺ؛ فنفوسُهم وقلوبُهم تنفعلُ بإرادة ذلك، ويغلي فيها، كأنَّه يتجدَّدُ وينمو فيهم.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (خوف).

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

عدلَ القرآنُ عن أن يقول: (ويخوفونه) بإرجاع الضّمير إلى ﴿عَبْدَهُۥ﴾ على قراءة الإفراد، إلى التّعبير بقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ بالالتفاتِ من ضمير الغَيْبة العائد على ﴿عَبْدَهُۥ﴾ إلى ضميرِ الخطابِ؛ المقصودِ به النّبيُّ محمّدٌ ﷺ لنكتةٍ؛ وهيَ تمحيضُ قَصْد النّبيّ ﷺ بمضمون هذه الجملةِ؛ بخلاف جملة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1]. ولَمّا أراد أهلُ الشِّرك تخويفَه، وسلْبَ شيءٍ من أمْنِه: زادَه اللّه أُنْسًا وأمْنًا وأمانًا بإحضارِه في ساحةِ الخطابِ الإلهيِّ؛ إنباءً بكمالِ حُبِّه نبيَّه، وبغضِه هؤلاء المشركينَ.

مَنْ آنَسَهُ اللهُ فلن يُخوِّفَه أحد

سِرُّ الإسنادِ إلى كافِ الخطابِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

لم يُسلِّطِ القرآنُ تخويفَ أهلِ الشِّرْكِ على اسمِ النّبيِّ محمّدٍ ﷺ أو وصفٍ له؛ نحوُ: (ويُخوّفون مُحمَّدًا)، أو: (ويُخوّفون النّبيَّ)؛ وإنّما سلّطَه على كافِ خطابِه؛ فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ذلكَ التّخويفَ لن يُصيبَه ﷺ؛ وإنّما هو مُجرَّدُ قولٍ لن يَظْهَرَ له فِعْلٌ؛ فالضّميرُ كالقولِ المُجرَّد، وكلٌّ من الاسمِ الظّاهرِ والوصفِ الظّاهرِ كالفِعْلِ. وفي تسليطِه على ضميرِه (كاف الخطاب) إشارةٌ إلى رِفْعةِ مكانتِه ﷺ وعُلوِّ قدرِه.

تعظيمُ اللهِ لنبيِّه ﷺ والتّهوينُ من شأنِ تخويفِ المشركين له

دلالةُ تَعديَةِ الفعلِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ بالباءِ:

عُدِّيَ الفعل ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ بالباء في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ مع أنَّ فِعْلَ التّخْويفِ يتعدّى بنفسه إلى مفعولَيْن؛ نحوُ: (خوَّفْتُ الجنودَ المعصيةَ)؛ وإنّما تعدَّى هنا بواسطة الباء إلى الموصولِ الصّادقِ على الآلهةِ الباطلةِ التي يعبدُها أهلُ الشِّرْك من دون اللّهِ؛ للتّعجُّبِ من حال هؤلاءِ؛ فإنّ الذين اتّخذوهم من دونه آلهةً ليس من شأنهم التّخويفُ.

التّعجُّبُ من تخويفِ المشركين له ﷺ بالأصنام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13.

دلالةُ التّعبيرِ بالباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

مِن دأْبِ أهلِ الباطِلِ الكَذِبُ والتَّدْليسُ

عُبِّر بالباء في قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾؛ لبيان غرضِهم من التّخويفِ؛ وهو تحقُّقُ التّخويفِ المذكورِ؛ بإيهامِ أنّهم أعرفُ النّاسِ بتلك الأصنامِ، وبما يكونُ منها في حالةِ الغضبِ، وهذا كلُّه كذِبٌ ودجَلٌ كعادةِ أهلِ الباطلِ في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ. ويجوز أنْ يكون في الباء معنَى السَّببيَّةَ؛ أيْ: (ويخوفونك بسببِ الذين من دونه)؛ أيْ: (بسبب تعييبك الذين من دونه)، وهذا يُصوِّرُ إجلالَهم للأصنامِ وخوفَهُم منها؛ إيهامًا لأهلِ الإيمانِ بأنَّها آلهةٌ تنفعُ وتضرُّ.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصوليَّةِ (الذين) عن الأصنام:

ما يعبده أهلُ الكُفرِ صارَ ضُحكَةً وشُهرَةً بينَ النّاسِ

أُطلقَ وصف التَّعبيرِ القرآنيِّ بالاسم الموصول (الذين) - الذي يُعبَّر به عن الذُّكور العقلاء - على الأصنامِ رغم أنَّها لا تعقل، وذلك للتّهكُّم والسُّخْرية والاستهزاءِ بما اعتقدوه في تخويف الأصنام؛ لأنَّ التَّخويف يقع ممَّن له اختيارٌ، وهذا شأن العقلاء؛ لذلك نزَّلوها منزلةَ العقلاءِ، ونسبوا إليها القوّة؛ لذلك نزّلوها منزلة الذُّكور من العقلاء، وهذا هو الألصق بسياق التّخْويفِ الذي يحتاج إلى قوَّةٍ وشدَّةٍ وجرْأةٍ. وهذا التّنْزيلُ يُشاكِل - مُعرِّضًا بأهل الكفر - تنزيلَهم بالعبادة وغيرِها منزلةَ العقلاءِ مع اعترافهم بأنّهم لا عقلَ لهم؛ فصاروا بذلك ضحكةً وشهرةً بين النّاس[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

ما أسْفهَ عقولَ المشركين وأحقرَ ما يدعون من دون الله

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ جارٌّ ومجرورٌ ومُضافٌ ومُضافٌ إليه مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ هو صلةُ الموصولِ: (الذين)؛ أي: الذين اتَّخذوهم من دونه، ونحوُ ذلك. وفي نَظْم هذا المعنَى صلةً تقريرٌ وتحقيقٌ لحقارةِ الأصنامِ وغيرِها ممّا يُعْبَدُ من دونِ اللهِ، وسفَّه عابديها؛ لأنّها مخلوقة لله لا تنفعُ ولا تضُرُّ، فليس من شأنِها أنْ تُعْبَدَ؛ فضلًا عن التَّخويف بها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449.

سِرُّ حذفِ مُتعلّق ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

حذَف القرآنُ ما يتعلّقُ به قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ - كائنًا ما كان تقديرُه، وكلُّ تقديرٍ يشتملُ على عنصرٍ يعودُ على الموصولِ الذي هو الأصنامُ ومِثْلُها؛ نحو: (الذين اتخذوهم من دونه)، و(الذين عبدوهم من دونه)؛ إبلاغًا في تحقيرِ تلك الآلهةِ الباطلةِ المزعومةِ؛ فغيابُها من الكلامِ في الصِّلة دليلُ كمالِ بطلانها وضعفها عن أنْ تكون - كما يزعمون - آلهةً تنفع وتضرُّ.

المبالغةُ في تحقيرِ تلك الآلهةِ الباطلةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ بيانيّةٌ؛ لأنّ ما قبلها كاسم الجنس في غموضه وإبهامه؛ وهو الاسم الموصولُ الفقيرُ إلى صلةٍ تكشف حقيقته، وتوضِّحُه؛ فـ ﴿مِن﴾ من تمام عنصرِ التّشويقِ إلى معرفةِ حقيقة الموصولِ؛ قال البقاعيُّ: "وبيَّنَ حقارتَهم بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهم معبوداتهم ضلالًا عن المَحَجَّة؛ فيقولون: إنّا نخشَى عليك أنْ تخْبِلك آلهتنا"[1].

اعتقادُ بُطْلانِ هذه الآلهةِ الباطلةِ ينبغي أنْ يكون راسِخًا في النَّفْسِ

عِلَّةُ التّعبيرِ بـ (دون):

عبَّر بـ (دون) في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من باب التَّهكُّم والسُّخريّة؛ لأنَّها تُقال في الأصل للقاصِر عن الشّيء، وهذا يدلُّ على ضعفها وقصورها؛ يُؤكِّد ذلك تعبيرُ القرآن عن الأصنام بقوله: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ فهي تحمل كلَّ معاني القصور والعجز.

في هذا نوعُ تحريكٍ للنّظرِ في الأعلى والأدنى

وقال بعضُهم: (دون) مقلوبٌ من (الدُّنوّ)، والأدْوَنُ الدَّنيءُ، حتّى صار معناه في مِثْلِ هذا السّياقِ الذي نحنُ فيه: (غير)؛ أيْ: بالذين من غيره، وعلى كلٍّ ففيه معنَى الضَّعْفِ والحقارة[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449، والراغب، المفردات: (دون).

سِرُّ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهار:

كمالُ ظهورِ نفي التّسويةِ بينَ اللهِ - وبينَ آلهتِهم المزعومةِ

للتّعبير عن اسم الجلالة (اللّه) بالضّمير في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ – دون الإظهار معَ أنّه الأصلُ –؛ لتصويرِ كمال ظهورِ نفي التّسْويةِ بينَ اللّه – وبينَ غيرِه مِمّا يعبدُه أهلُ الكفرِ والشِّرْكِ من دونِ اللّهِ، وهذا ينسجمُ مع وقوعِ الضّمير عنصرًا في صلةِ الموصولِ. ولو عُبِّر باسْم الجلالة (اللّه) مُظْهَرًا في موضِع إضمارِه لأفْهَم اعتدادًا بالمُخوَّفِ به، وبالتّخويفِ، وهذا ضِدُّ الغَرَضِ الذي هو إثباتُ عكسِ ذلك تمامًا.

سِرُّ التَّعبير بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾:

رفضُ الكذبِ وتثبيتُ الصّدقِ يفتقرُ إلى طولِ نَفَسٍ ومُعاناةٍ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنَّ هذه الجملة ثمرةٌ ونتيجةٌ لمجموعِ قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ فهو من لوازِم ذلك؛ ثم إنّها توكيدٌ لمعنى أنَّ اللّه هو الكافي وهو الشّافي، وأنّكم كلّكم في قبضته، ولا حول ولا قوة إلّا بحولِه وقوّته؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواوِ؛ لكمال الاتّصالِ بين الطّرفيْنِ؛ ولكنَّ الواوَ التي لا يبرحُها معنى المُغايَرة دلَّت على استقلالِ ما بعدها عمّا قبلها؛ احتفالًا واعتناءً بمضمونِه؛ إبلاغًا في تهديدِ أهلِ الكذبِ والتّكذيبِ والتّخويفِ، وفي تثبيتِ أهل الإيمانِ والصِّدْق والتّصديقِ، وتسليةِ رأسِهم نبيِّنا محمّدٍ ﷺ.

دلالةُ أسلوبِ الشّرْطِ في الآيةِ الكريمة:

تحقُّقُ ضلالِهم واستمرارِهم فيه

نظَم القرآنُ معنى الإضلالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ في صورةِ الشّرطِ والجوابِ، وكذلك معنى الهدايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾؛ لإبرازِ كلٍّ من المعنيَيْنِ في وكادةٍ وحَسْمٍ وفَصْلٍ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُقرِّرُ الأُلوهيّة الحقَّةَ التي يكون في قبضتِها كلُّ شيء، ولا حول إلّا بحولها، ولا قوّةَ إلّا بقوّتها؛

ولهذا كان كلٌّ منهما معنًى وأسلوبًا تمهيدًا قويًّا لمجيء معنى قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (مَنْ):

الإفـرادُ أبلـغُ في إفـرادِ الأُلـوهيّةِ الحَقَّةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنَّ لفظَها مُفردٌ مُذكَّرٌ؛ ومعناه الجمعُ بنوعيه، والقرآنُ حملَ على لفظِه، فبُنِي على أسلوب الإفرادِ والتّذكير، وظهَر هذا الحَمْلُ في الضّمير في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ في الموضعيْن، والمفعولُ المحذوفُ في قوله: ﴿يُضْلِلِ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِ﴾ مُفردٌ مُذكَّرٌ أيضًا، وذلك؛ لأنَّ الإفرادَ أبلغُ في تقريرِ الألوهيَّة الحقَّةِ الكافيةِ الشّافيةِ التي في قبضةِ قدرتِها كلُّ شيءٍ، ولأنَّه أبلغُ في تسليةِ النّبيّ ﷺ والتّخفيفِ عنه في إذهاب نفسِه عليهم حسراتٍ، وأيضًا في إرعابِ أهلِ الشِّركِ وإرهابِهم. وهو أدلُّ على الغضبِ والجلالِ والقَهْرِ والهَيْمنةِ والإحاطةِ والجبروتِ؛ لأنّ القوم حاولوا أنْ يُخوِّفوا الرَّسول ﷺ بمخلوقٍ لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا.

عـلى المـرءِ أن يُـراجِـع نفسَه ويُقيّم إيمانَه

وفيه أيضًا حثٌّ لكلِّ نَفْسٍ كافرةٍ مشركةٍ على مراجعةِ ما تعتقدُه من غير تأثُّرٍ بأحدٍ من بني عقيدتها؛ لأنَّ كلَّ نَفْسٍ سوف تُجزى بما كسبت هيَ، وكلُّ نَفْسٍ بما كسبت رهينةٌ.

وفيه أيضًا حثٌّ لكلِّ نَفْسٍ مؤمنةٍ على حدةٍ على الثّباتِ؛ لأنَّ هذه النَّفْسَ معها شيءٌ عظيمٌ؛ هو هدايةُ اللّهِ. وأمّا التَّذكيرُ: فهو الأنْسَبُ بسياقٍ فيه الجلالُ والتَّرهيبُ والجمالُ والتَّرغيبُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضلالِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾

الـكـذِبُ والـتَّـكـذيـبُ مـن أعـظـمِ أسبابِ الضَّلالِ والإضلالِ

عبَّر القرآنُ بالإضلالِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ تناسُبًا وتلاؤُمًا مع سياقِ الكذبِ والتّكذيبِ في السِّباقِ القريبِ؛ فإنَّهما من أعظمِ أسبابِ الضَّلالِ والإضلالِ والعُدولِ الطّريقِ المستقيم، وهذا المعنى متناغٍ بقوّة مع هذيْن؛ لأنَّ بهما تتغيّر الحقائقُ، وأصلُ هذا

المعنى يدلُّ على ضَياعِ الشَّيء وذَهابِه في غيرِ حقِّه[1]. ففيه كلُّ تنفيرٍ من الكذِب والتَّكذيب، والتَّرغيب في الصِّدْقِ والتّصديقِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُضْلِلِ﴾:

مَظاهِرُ الألوهيّةِ مُتجدِّدةٌ فلا مُعقِّبَ لحُكمِهِ

نظَمَ القرآنُ الكريمُ معنى الإضلالِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ نظرًا إلى تجدُّدِ خَلْقِ أسبابِ الإضلالِ الذي هو تأويلُ إسنادِه إلى اللّهِ في الظّاهرِ؛ لتفاوُتِ هذه الأسبابِ؛ وهذا يلمحُ من طَرْفٍ خفيٍّ إلى إمكانِ التَّبديلِ والتَّغييرِ؛ فلا يأسَ من رحمةِ اللّهِ ولُطفِه.

بلاغةُ الإسنادِ في: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾:

الإضلالُ بقدَرِ اللهِ وأمرِهِ

أسنَد القرآنُ الإضلالَ إلى اللّه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، وهذا الإسنادُ على تأويلِ أنّه سبحانه خالقُ أسبابِ الضَّلالِ والإضلال، وذلك من تصرُّفِه تعالى في الخَلْقِ، وهيمنته واقتدارِه عليهم، وهو من مظاهر حِكْمتِه العليَّةِ اللّطيفةِ. وفي هذا الإسنادِ إشارةٌ إلى أنَّ الضَّلال كائنٌ بمعرفةِ اللّه تعالى، وما يتْبَعُ تلك المعرفةَ. وفيه أيضًا إبلاغٌ في تقريرِ خلْقِ أسبابِه، وتحريكٌ للمُتلقّي لفَهْمِ تأويلِ الإسنادِ؛ فيتمكّن المعنى في نفْسِه؛ فيثبتُ على الهدايةِ؛ إنْ كان مؤمنًا، ويُفكِّر فيما هو عليه من عقيدة وعملٍ ضالّيْن؛ إنْ كانَ كافرًا. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ إسنادَ إيجادِ الإضلالِ إلى اللّهِ "كنايةٌ عن تعسُّر أو تعذُّر اقتلاعِه من نفوسِهم"[2].

سِرُّ حَذْفِ العائدِ في: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾:

القدرةُ الإلهيّةُ لا يحدُّها حدٌّ

حذَف القرآنُ العائدَ على اسْمِ الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ وهو مفعولُ فِعْلِ الشّرطِ، وهو ضميرٌ مُفرَدٌ مُذكَّرٌ بقرينةِ الضّميرِ في قوله: ﴿لَهُۥ﴾؛ أيْ: (ومَن يُضلله اللّهُ)، وسِرُّ الحَذْفِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (ضَلّ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

تصويرُ كمالِ اقتدارِ اللّهِ سبحانه على كلِّ فَرْدٍ من خَلْقِه، ونَفاذِ أمرِه في خَلْقِه؛ فهو الإلهُ الحقُّ، وقدرتُه القدرةُ المُتفرِّدةُ معَ فائدةِ الإيجازِ المُناسِبِ؛ بما فيه من إسراعٍ لسياقِ الغضب والجلال، وسياقِ الشّرط من الفَصْلِ والحَسْمِ وفائدةِ تحريكِ المُتلقّي للتَّفكير بقوَّةٍ في هذا المعنى عن طريق تأويل الحذفِ وتعيينِ المحذوفِ وفِقْهِ سِرِّهِ؛ فيتمكّن المعنى في نفوسِهم؛ وذلك سبيلٌ قويٌّ لأنْ ينظروا بتأنٍّ في الهُدى والضَّلالِ، فيختاروا أيَّ الطَّريقيْنِ يسلكونه ويستمرّون فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ الإضمار:

كانَ الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (ومَنْ يُضلل)، أو: (ومَنْ يُضلله) بعدم ذِكْرِ اسْمِ الجلالةِ؛ لأنّ الأصلَ الإضمارُ؛ وإنّما أظْهَرَهُ القرآنُ "لتحقيقِ مضمونِ الكلام، وتربيةِ المَهابةِ"[1]. وللتَّنْبيهِ على ظهورِ الأُلوهيَّةِ الحقَّةِ ظهورًا جليًّا بيِّنًا في شأنِه تعالى في مضمونِ هذه الجملةِ. وفيه أيضًا: إبلاغٌ في تسليةِ الرَّسولِ ومَن معَه ودعوتِهم إلى تسليمِ الأمرِ للّه وحده في أمرِ الكاذبينَ المُكذِّبينَ. وحسَّنَ الإظهارَ في موضعِ الإضمارِ طولُ المسافةِ البيانيّةِ بين ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ وبين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّه واردٌ في صدرِ جملة مستقلَّةٍ.

كـلُّ شيءٍ في الـكـونِ يـدلُّ على أنَّ اللهَ هو الواحدُ الأحدُ

دلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ واقعةٌ في صدرِ جوابِ الشّرط؛ لأنّه جملةٌ اسميَّةٌ؛ فهي رابطٌ بينَ جملةِ الشّرطِ وجملةِ الجوابِ، فهذا الرَّبْطُ معناها، وتُلازمُها السّببيَّةُ؛ فتدلُّ هنا على قوّةِ تلبُّسِ الإضلالِ بمَن يُضلله اللّهُ، حتَّى إنّه لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يهديه مُطلقًا.

مَـن تـلـبَّـس بـالإضـلالِ لا يستطيعُ أحدٌ أن يهديَه إلّا اللهُ

دلالةُ التّعبيرِ بـ (ما)

قولُه تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ جملةٌ منفيَّةٌ، والنّافي فيها (ما)، وهي غيرُ عاملةٍ. ومعنَى الجملةِ التي نفَتْه يوجِّه زمانَ النَّفْيِ بها؛ فهي

النَّـفـيُ بـها فـي الـحـالِ والاستقبالِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602.

في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ للنَّفْي في الحالِ والاستقبالِ، والمعنى: أنَّ من أخَذ بأسبابِ الهداية فاهتدَى؛ فلن يَصْرِفَه أحدٌ عن مقصده، ولن يُصيبَه بسوءٍ يُخِلُّ بسلوكه، ولن يُثْنِيَه عن الاهتداءِ أحدٌ؛ لا في الحال ولا في المستقبل. وهذا العمومُ في النَّفْي تصويرٌ لجانبٍ من جوانب الألوهيّة الحقَّة التي لا رادَّ لفِعْلِها، ولا مُعارِضَ لإرادتِها.

دلالةُ اللّام في قولِهِ: ﴿لَهُۥ﴾:

ما يقضي به الله حَتْمٌ لازِمٌ

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ معناها الاختصاصُ الذي تتضمَّنُه الإضافةُ؛ فتكون تمهيدًا للقَصْرِ الحاصلِ بتقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ما بعدَه؛ وذلك إبلاغٌ في إثباتِ الضّلالِ، ونفي محاولةِ تبديلِهِ؛ أيْ: إبلاغٌ في تقريرِ أنَّ أمْرَ العبادِ كلِّ العبادِ بيدِ اللّه الكافي الشّافي.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير:

الإنباءُ بكمالِ قدرتِهِ تعالى على عبادِهِ

وفي التّعبير بالضّمير ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ دون صريحِ الوصفِ إيجازٌ؛ يُساعِدُ في تحقيقِ سَمْتِ الجملةِ من الحَسْمِ والفَصْلِ والقَطْعِ. وينسجمُ معَ سياقِ الغضبِ والجلالِ. وفي الضّميرِ المُشْعِرِ بالذّاتِ إنباءٌ بكمالِ استيلائِه تعالى على عباده.

سِرُّ تقديمِ ﴿لَهُۥ﴾ هنا وتأخيرِه في سورة (الأعرافِ)

قصرُ نفيِ الإضلالِ على من هداهُ اللهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ على المبتدأِ ﴿مِنْ هَادٍ﴾؛ فأفادَ التّقديمُ قَصْرَ نفيِ الهدايةِ على من أضلَّه اللّه؛ كما قُصِر نفيُ الغَوْلِ على خمر الجنّة في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصّافات: 47]. ومعنَى هذا: أنَّ من أضلَّه غيرُ اللّه يُمكن أنْ يكون له هادٍ؛ كهؤلاء الذين تُضِلُّهم شياطينُ الإنس والجنّ ثمّ يرجعون، وهذا القصرُ يعني أيضًا أنّ من أضلَّه اللّه لا يهديه أحدٌ، ويمكنُ أنْ يَهديه اللّهُ؛ لأنّه هو الإلهُ الحقُّ الذي بيده كلُّ شيءٍ، وهذا تمكينٌ لمعنى أنَّ اللّه كافٍ عبدَه.

ويدلُّ القَصْرُ على شديدِ التّرهيبِ من الكذبِ والتّكذيبِ؛ لأنّ ذلك يجعلُ العبدَ يتعرَّضُ لإضلالِ اللّهِ الذي لن يكون بعدَه هدايةٌ من أحدٍ.

وفي التّقديمِ اهتمامٌ بضميرِهم في مقامِ نفي الهادي لهم؛ لأنَّ ضلالَهم المَحكيَّ في السّياق بالغٌ في الشّناعة؛ إذا بلغ بهم حدَّ الطَّمَع في تخويفِ النّبيّ ﷺ بأصنامِهم في حالِ ظهورِ عدمِ اعتدادِه بأصنامِهم، وإذا بلَغ بهم اعتقادُ مقدرةِ أصنامِهم مع الغفلةِ عن قدرةِ الرَّبِّ الحقِّ.

وفي سورةِ (الأعرافِ) وردَ عكسُ هذا التّقديم؛ قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 186]. والشّاهدُ: ﴿هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 186]؛ وسببُ ذلك أنَّ في السّياق ذِكْرَ إعراضِهم عن النّظر في ملكوتِ السَّماوات والأرضِ؛ وهذا ضلالٌ دونَ ضلالِ التّخويفِ من بأسِ أصنامِهم كما في (الزُّمَر). وبناءُ اسم لا النّافية للجنس في (الأعراف) على الفتح: مشعرٌ بأنَّ المرادَ نفيُ الجنسِ نَصًّا، فلم تدخل: (مِنْ) في التّركيب كما دخلت في (الزمر)[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ هَادٍ﴾

تمهيدٌ لتقريرِ عِـزَّتِـه تعـالى وانتقامِه

الأصلُ أنْ يُقال: (فما له هاد)، من غير (مِنْ) ولكنْ وردَ التَّعبيرُ بها في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ فأدخلَها على الاسمِ المُفيدِ للعمومِ من جهة تنكيرِه لوقوعه في سياقِ النَّفْي؛ بقرينة سياقِ المعنى لاستغراق النّفي، وشمولِ جميعِ أفرادِ المنفيِّ، "وتَنْصيصًا على نفي الجنس"[2]؛ فهي توكيدٌ للعمومِ وتكثيرٌ له؛ وهذا إبلاغٌ في تقريرِ النَّفي يَتْبعُه إبلاغٌ في تخويفِ أهلِ الكذبِ والتّكذيبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 250، 252.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

علَّةُ التّعبيرِ بـ ﴿هَادٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مطلوبُ القرآنِ هدايةُ كلِّ ضالٍّ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بوصفِ الهدايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هَادٍ﴾؛ لأنَّ مطلوبَه في الضّالِ هو أنْ يهديَه إلى الحقِّ والصَّوابِ والخيرِ. ونظَمَه القرآنُ اسْمًا ﴿هَادٍ﴾ إشارةً إلى ثُبوتِ النَّفْيِ؛ وإنْ كانَ الحريصُ على هدايتِه إلى الخيرِ مُطلقِ خيرٍ مُهتديًا هو إلى كلِّ وجوهِ الخيرِ، وإنْ كانَ الحريصُ على ذلكَ دائمَ محاولةِ هدايتِه، ثابتًا في هذا المقامِ الدَّعَويِّ مُستمِرًّا فيه في كلِّ وقتٍ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ نفاذِ حُكمِ اللّهِ في إضلالِ من يضْلِلُه.

دلالةُ التَّنْكيرِ في قولِهِ: ﴿هَادٍ﴾:

نظَمَ القرآنُ المُسندَ إليه في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ نكرةً في سياقِ النَّفْيِ؛ لإفادةِ العمومِ؛ أيْ: أيِّ هادٍ، من قريبٍ أو بعيدٍ أو صديقٍ أو عدوٍّ.

بلاغةُ الكنايةِ في فاصلةِ الآيةِ:

لا هـــاديَ ولا اهتداءَ

محصولُ جملةِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ نفيُ الهادي، وقد أُريدَ منه نفيُ حصولِ الاهتداءِ؛ فكُني عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي؛ لأنَّ عدم الاهتداء يجعلُ هاديَهُم كالمنفيِّ[1]، فهو نفيٌ للمقصودِ بدليلٍ؛ وهذا أبلغُ في تقريرِ المطلوبِ.

بلاغةُ التَّعقيبِ بفاصلةِ الآيةِ:

القرآنُ يُرشدُهُم إلـــى ضـــرورةِ المراجعةِ

عقَّب القرآنُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ مع ما قبلَه في آيةٍ مستقلَّةٍ للفت أنظارِ أهلِ الكفرِ والشِّرْكِ لعظيم غفلتِهم الدّالِّ عليها قولُه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾، والمُراد تخويفُهم الرَّسولَ الأكرمَ إلى قُبحِ الإصرارِ على الشِّرْكِ والكذبِ على اللّه والتَّكذيبِ بالصِّدْقِ. وإلى أنَّ الذين خوَّفوا الرَّسولَ به لن ينفعَهُم؛ فلن يهديَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

إذا أضلَّهُمُ اللّٰهُ، وإنّما الذي ينفعُهم، فيكون سببًا في هدايتهم؛ إذا أراد اللّٰه هدايتهم وشاءَها: الذي يُخوِّفونه؛ وهو النّبيّ ﷺ.

نكتةُ تقديمِ فعلِ الإضلالِ على فعلِ الهداية:

الأصلُ القَصْدُ إلى علاج مَرْضى القلوبِ والعقيدةِ

قدَّم القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ من تقديم معنًى على معنًى، أو جملةٍ على جملةٍ؛ لأنَّ السّياقَ يغلبُ عليه الغضبُ والتَّهديدُ والوعيدُ؛ لاشتماله على إرادة تخويفِ خيرِ خَلْقِ اللّٰه على الإطلاقِ، وبدليلِ تعقيبِ هذيْنِ المُتعاطفيْنِ بجملة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»